حياة أعظم الرسل



مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَة

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَعرُوفًا بِالرَّأْفَةِ والرَّحمَةِ ، وَرِقَّةِ القَلبِ ، وَطِيبَةِ النَّفسِ ، وَالْعَطْفِ عَلَى الْإِنسانِ ، وَالرِّفقِ بِالْحَيَوانِ ، يُمَرِّضُ الدِّيكَ إِذَا مَرِضَ ، وَيَفتَحُ الْبَابَ لِلْقِطَّةِ إِذا لَجَأَتْ إِلَيهِ . وَقَد وَصَفَهُ اللهُ بِقَولِهِ : ﴿ بالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَخاطَبَهُ بِقَولِهِ : ﴿ وَمَا أَرسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ .

الرَّسُولُ وَالأَعرَابِىُّ :

جَاءَ أَعرَابِىٌّ يَطلُبُ مِنَ الرَّسُولِ شَيئًا ، فَأَعطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ : (هَلْ) أَحسَنتُ إِلَيكَ يَا أَعرَابِىُّ ؟ فَأَجَابَ الْأَعرَابِىُّ : لاَ ، لَم تُحسِنْ . فَغَضِبَ الْمُسلِمونَ مِن إِجَابَتِهِ ، وَقَامُوا إِلَيهِ مُتَأَلِّمِينَ . فَأَشَارَ إِلَيهِمُ الرَّسُولُ أَلاَّ يَمَسُّوهُ . ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ مَنزِلَهُ ، وَأَرسَلَ إِلَى الأَعرَابِىِّ ، وَزَادَهُ شَيئًا ، ثُمَّ سَأَلَهُ : (هَلْ) أَحسَنْتُ إِلَيكَ يَا أَعرَابِىُّ ؟ قَالَ : نَعَم ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيرًا . فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ : إِنَّكَ قُلْتَ

مَا قُلتَ ، وَفِى أَنفُسِ أَصحابِى مِن ذٰلِكَ شَىْءٌ . فَإِنْ أَحبَبْتَ فَقُل بَيـنَ أَيدِيهِـم ما قُلتَ بَينَ يَدَىَّ ؛ حَتَّى يَذهَبَ مَا فِى صُدُورِهِم عَلَيكَ .

فَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ حَضَرَ الْأَعرَابِـىُّ ، فَقَالَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِنَّ هٰـذا الْأَعرَابِىَّ قَالَ مَا قَالَ ، فَزِدْنَاهُ ، فَزَعَـمَ (قَالَ) إِنَّهُ رَضِىَ . أَكَذٰلِكَ ؟

قَالَ الْأَعرَابِىُّ : نَعَـم ، فَجَـزاكَ اللّٰهُ خَيرًا .

فَقَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : « مَثَلِى

وَمَثَلُ هـٰذَا مَثَلُ (شَبَهُ) رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَت عَلَيهِ (نَفَرَت مِنهُ) ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ ، فَلَم يَزِيدُوهَا إِلاَّ نُفُورًا ، فَنَادَاهُم صَاحِبُهَا : خَلُّوا بَينِى وَبَينَ نَاقَتِى (اُترُكُوهَا لِى وَاذْهَبُوا) ، فَإِنِّى أَرفَقُ (أَرحَمُ) بِهَا وَأَعلَمُ . فَتَوَجَّهَ لَهَا (ذَهَبَ) صَاحِبُ النَّاقَةِ بَينَ يَدَيهَا ، فَأَخَذَ لَهَا مِن (حَشَائِشِ) الْأَرضِ ، فَرَدَّهَا بِرِفْقٍ وَلِينٍ ، حَتَّى جَاءَتْ وَاستَنَاخَتْ (بَرَكَتْ) ، وَشَدَّ عَلَيهَا رَحْلَهَا ، وَاسْتَوَى عَلَيها (رَكِبَهَا)

وَإِنِّى لَوْ تَرَكْتُكُم حَيثُ قَالَ الرَّجُلُ ما قالَ ، فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ » .

فَالرَّسُولُ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كَانَ المَثَلَ الْعَالِىَ فِى الْحِلْمِ ، وَالْعَفوِ .

النَّبِىُّ وَالبَدَوِىُّ :

وَحَدَثَ ذَاتَ مَرَّة أَنَّ النَّبِىَّ كَانَ يُقَسِّمُ بَعضَ مَا غَنِموهُ (فَازُوا بِهِ) فِى الْحَربِ ، فَقَالَ رَجُلٌ بَدَوِىٌّ . يَا رَسُولَ اللهِ ، اِعدِلْ .

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ الكَامِلُ : « وَيْحَكَ ! (كَلِمَةُ رَحمَةٍ) فَمَن يَعدِلُ

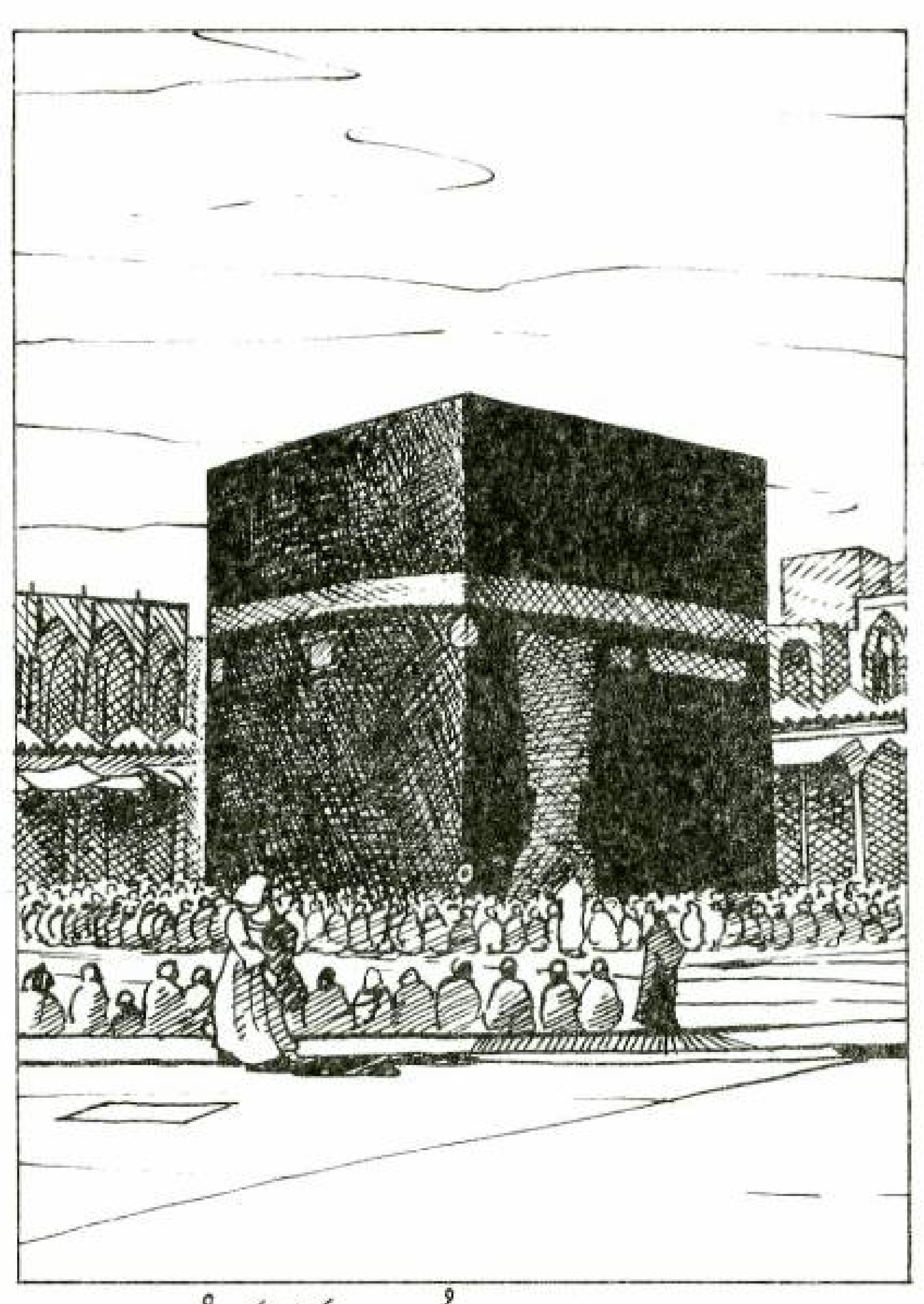
إِذَا لَمْ أَعدِلْ ؟ فَقَد خِبْتُ إِذًا وَخسِرْتُ إِن كُنتُ لاَ أَعدِلُ » .

فَقَامَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : يَارَسُولَ اللهِ ، أَلاَ أَضرِبُ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ مُنَافِقٌ ؟

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « مَعَاذَ اللهِ أَن يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنى أَقتُلُ أَصحَابِى » .

المُصطَفَى مَثَلٌ لِلرَّحمَةِ :

كَانَ الْمُصطَفَى مَثَلاً عَالِيًا لَلرَّحمَةِ وَالشَّفَقَةِ بَالْمُسلِمينَ وَالْكَافِرِينَ ، والْأَصدِقَاءِ وَالْأَعدَاءِ عَلَى السَّوَاءِ ، كَثِيرَ الْعَطفِ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ . وَقَد



الكَعبةُ المُشَرَّفَةُ

وَصَفَ الرَّسُولُ حَقِيقَةَ نَفسِهِ بِقَولِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحمَةٌ مُهْدَاةٌ[1] » .

وَقَال : « لاَ تُنزَعُ الرَّحمَةُ إِلاَّ مِن شَقِيٍّ » .

وَقَالَ : « مَن يُحْرَم الرِّفقَ يُحْرَم الْخَيرَ كُلَّهُ » .

وَقَد عَمَّتْ رَحمَتُهُ الْخَدَمَ وَالْعَبيدَ . وَالْحَيَوانَاتِ وَالطُّيُورَ ، فَكَانَ يَعطِفُ عَلَى كُلِّ إِنسَانٍ ، وَيَرْأَفُ بِكُلِّ حَيَوَانٍ .

وَكَانَ بَعضُ الصَّحَابَةِ مُسَافِرِينَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ، فَرَأَوْا عُصفُورَةً ، مَعَهَا فَرخَانِ

(١) أهداها الله إلى العَالَم .

لَهَا ، فَأَخذُوهُمَا ، فَجَاءَتِ الْعُصفُورَةُ تُرفرِفُ بِجَنَاحَيْهَا . فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ : مَن فَجَعَ (أَوْجَعَ ، آلَمَ) هٰذِهِ بِوَلَدِهَا ؟ رُدُّوا وَلَدهَا إِلَيهَا .

النَّبِىُّ يَبكِى :

ذَاتَ يومٍ عَلِمَ النَّبِىُّ أَنَّهُ قَد مَاتَ وَلَدٌ لِإِحدَى بَنَاتِه ، فَسَقَطَتِ الدُّمُوعُ مِن عَينَيهِ ، فَسُئِلَ . مَا هٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟

قَالَ : « هٰذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِى قُلُوبِ عِبَادِهِ . وَإِنَّمَا يَرحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » .

وَفِي يَوْمٍ اِشْتَدَّ الْمَرَضُ بِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ يَزُورُهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَيْبُوبَةٍ بَيْنَ أَهْلِهِ . فَقَالَ : « قَدْ قَضَى (مَاتَ) » ؟ قَالُوا : « لاَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ » ، فَبَكَى النَّبِيُّ ، وَقَالَ : « أَلاَ تَسْمَعُونَ أَنَّ اللّٰهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلاَ حُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلٰكِنْ يُعَذِّبُ بِهٰذَا » وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ .

مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ :

وَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ بَعْدَ إِحْدَى الْمَوَاقِعِ أَنَّ صِبْيَةً (جَمْعُ صَبِيٍّ) قُتِلُوا بَيْنَ الصُّفُوفِ ، فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيداً ، فَقَالَ

بَعضُ الحَاضِرِينَ : مَا الَّذِى يُحْزِنُكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَهُم صِبْيَةٌ لِلْمُشرِكِينَ ؟ فَغَضِبَ النَّبِىُّ ، وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ هؤُلاَءِ خَيرٌ مِنكُم . إِنَّهُم عَلَى الْفِطْرَةِ (الطَّبِيعَةِ) . فَإِيَّاكُم (أُحَذِّرُكُم) وَقَتْلَ الْأَولاَدِ ، إِيَّاكُمْ وَقَتْلَ الْأَولاَدِ .

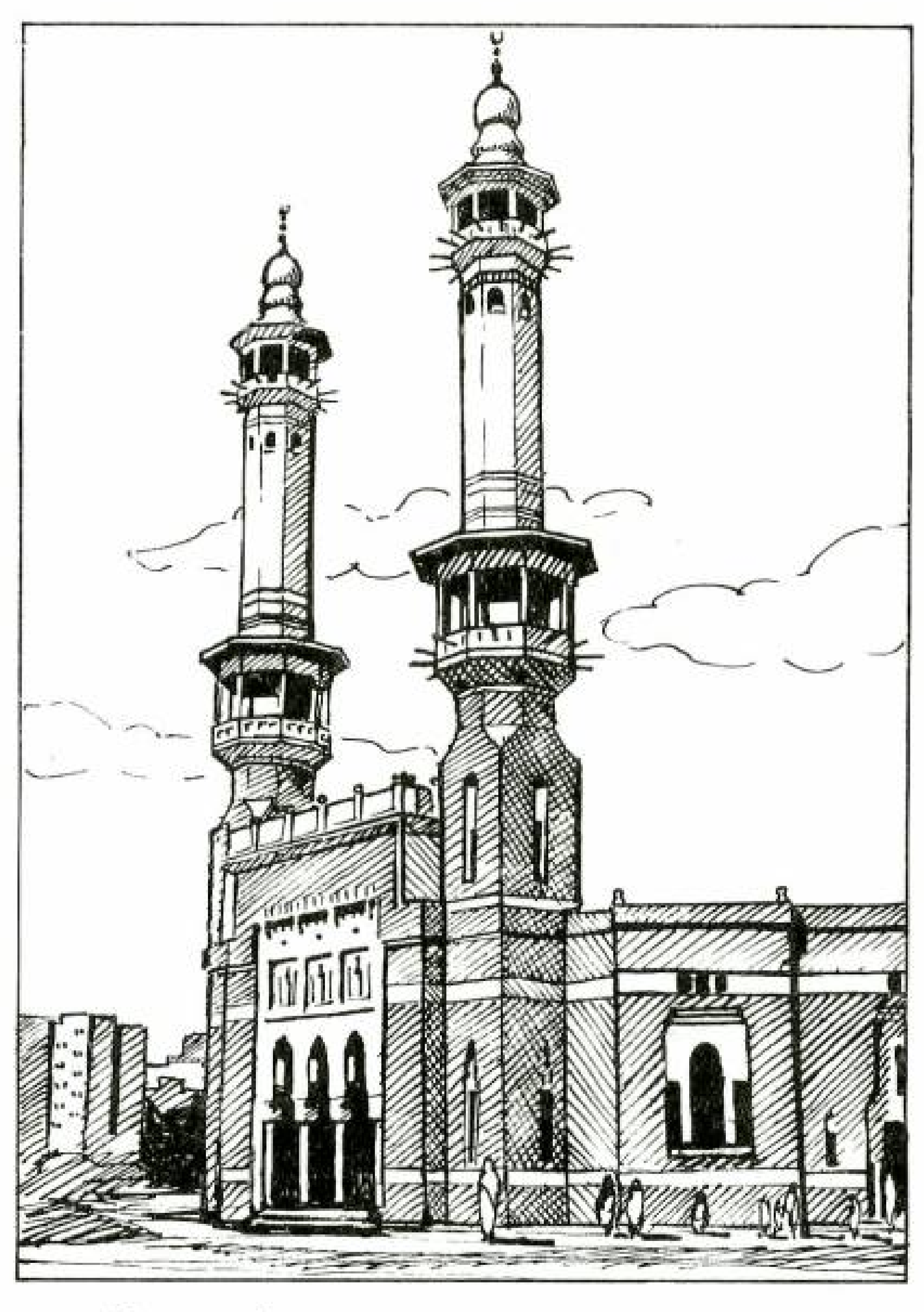
فَالنَّبِىُّ حَذَّرَ مِن قَتلِ الْأَولاَدِ ، وَكَرَّرَ التَّحذِيرَ ، وَلَوْ كَانُوا مِن أَبْنَاءِ غَيرِ المُسلِمينَ .

وَقَد سُئِلَ مَرَّةً أَنْ يَلْعَنَ[١] أَعدَاءَهُ ، فَقَالَ : « مَا جِئْتُ لَعَّانًا بَل رَحْمَةً » .

---

(١) اللَّعْنُ : الطَّرْدُ وَالإِبعَادُ مِنَ الْخَيرِ .

وَسَمِعَ مَرَّةً أَعرَابِيًّا يُصَلِّى خَلْفَهُ يَقُولُ : اللّهُمَّ (يَا اللهُ) ارْحَمْنِى وَمُحمـدًا ، وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا . فَلَمَّا انتَهَى مِنَ الصَّلاَةِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ النَّبِىُّ : « لَقَد ضَيَّقْتَ وَاسِعًا » . وَكَانَ رَجُلٌ يَمشِى فِى الطَّرِيقِ ، فَاشتَدَّ عَلَيهِ العَطشُ ، فَوَجَدَ بِئراً ، فَنَزَلَ فِيهَا ، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ ، فَرَأَى كَلْبًا يُخرِجُ لِسَانَهُ ، وَيَأْكُلُ التُّرَابَ النَّدِىَّ مِن شِدَّةِ الْعَطَشِ . فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَد بَلَغَ هـٰذَا الْكَلبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثلَ الَّذِى كَانَ بَلَغَ مِنِّى . فَنَزَلَ الرَّجُلُ الْبِئْرَ ،



بابُ المسجدِ الحَرامِ بِمكةَ المُكَرَّمَةِ

فَمَلأَ خُفَّهُ(١) مَاءً ، ثُمَّ أَمسَكَهُ بِفَمِهِ حَتَّى صَعِدَ مِنَ البئرِ ، فَسَقَى الْكَلبَ ، فَشَكَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ .

فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَإِنَّ لَنَا فِى الْبَهَائِمِ لَأَجرًا .

قَالَ : « فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ(٢) أَجرٌ » .

وَقَالَ أَيضًا : دَخَلَت امرَأَةٌ النَّارَ فِى هِرَّةٍ (بِسَبَبِ قِطَّةٍ) ، رَبَطَتْهَا ، فَلَم تُطعِمْهَا ، وَلَم تَدَعْهَا (تَترُكْهَا) تَأْكُلُ مِن خِشَاشِ (حَشَرَاتِ) الْأَرضِ .

---

(١) نَوعٌ مِنَ الأَحذِيَة .
(٢) حَيَوانٍ أَوْ طَائِرٍ .

وَقَالَ أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ : كَانَ رَسُولُ اللهِ يَأْخُذُنِى فَيُقعِدُنِى عَلَى فَخِذِهِ ، وَيُقعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الْأُخرَى ، ثُمَّ يَضُمُّنَا وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ (يَا اَللهُ) ارْحَمهُمَا فَإِنِّى أَرْحَمُهُمَا » .

وَقَد حَدَثَ أَن عَجِبَ بَعضُ الْأَعرَابِ مِنَ الْمُصطَفَى وَهُوَ يُقَبِّلُ أَولَادَهُ وأَولَادَ أَصحَابِهِ ، فَقَالَ الْأَقرَعُ بنُ حَابِسٍ مَرَّةً وَقَد رَآهُ يُقَبِّلُ الْحُسَينَ : إِنَّ لِى عَشَرَةَ أَولَادٍ مَا قَبَلْتُ أَحَدًا مِنهُم قَطُّ . وَاعتَرَضَ

آخَرُونَ بِمِثْلِ هٰـذَا الرَّأْيِ عَلَى الرَّحْمَةِ غَيْرِ الْمُعْتَادَةِ . وَكَانَ الرَّسُولُ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا غِلَاظاً قُسَاةَ الْقُلُوبِ .

وَكَانَ الرَّسُولُ يَعْطِفُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَدْ خَاطَبَهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أَيْ تَرَكُوكَ .